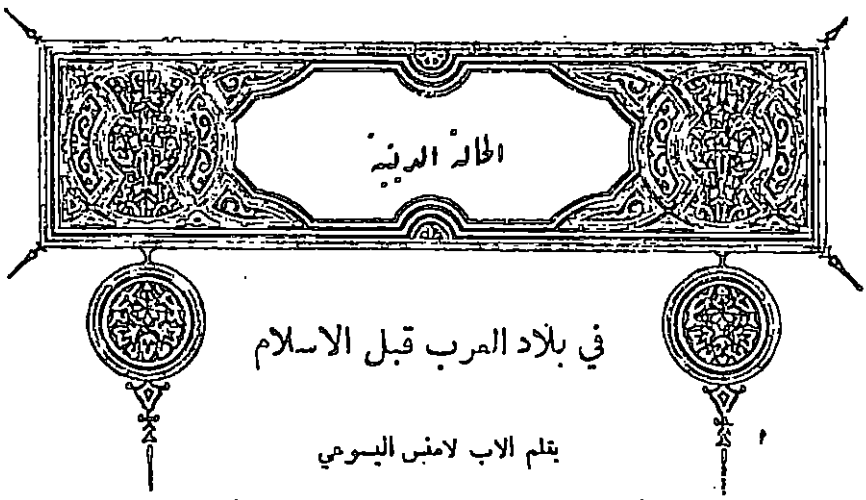

في بلاد العرب قبل الاسلام

بقلم الاب لامنس اليسوعي

لا يزال المستشرقون يواصلون الابحاث عن وجود العاطفة الدينية في الشعب العربي قبل الاسلام ثم عن عمق هذه العاطفة ؛ وانهم ليبحثون طويلًا في هذا الموضوع. اما القرآن فانه يسم ذلك الشعب بالكفر بكل صراحة ووضوح (في السور ٩٨:٩ — ١٠٠ ؛ و٣٠:٣ ؛ و٤٩:١٤). هذا واننا نفتش عبثًا في ما وصل الينا من آثار الادب الجاهلي عن شعور ديني عميق او مظهر تقوي صحيح. فلا نجد اثرًا من ذلك كله في بقايا الشعر الجاهلي ، ذاك الشعر الذي نسبه رنست رينان الى « العبث وعدم التقوى » فاصاب ، لا كما حصل له اذ نسب الكفر الى التديّن قائلًا « ان الكفر لموحد » فاخطأ كلّ الخطأ.

الكعبة

واننا نبدأ بحثنا بذكر الكعبة وما كان يجري فيها من مظاهر العبادة. وما الكعبة سوى بناء مستطيل الشكل غير مسقوف في اصله ، كان يُستعمل كإطار « للحجر الاسود » وهو اشهر معبودات القرشيين الذين لم يكونوا ليكتفوا بمعبود واحد . وقد رُمّمت الكعبة مرات وأُدخل عليها اصلاحات عدة كان آخرها في القرن السابع عشر فاصبحت مساحتها اليوم اثني عشر مترًا في عشرة امتار ، وعلوها خمسة عشر مترًا ، ولها باب يعلو مترين عن سطح الارض ويغطي جدرانها الاربعة من الخارج قماش ثمين يدعى « الكسوة ». اما « الحجر

الاسود» فموضوع في الزاوية الجنوبية الشرقيــة على علوّ متر ونصف المتر عن سطح الارض؛ غير بعيد عن حجر آخر يسمى «الاسعد». وهــذا الأخير ينال شيئاً من مظاهر العبادة، فيلمسه المؤمنون لمساً، ولكنهم لا يلثمونه كما يفعلون بالحجر الاسود. واذا القينا نظرة عامة على بــلاد العرب قُبيل الاسلام نرى في جميع انحائها، ولا سيا في الحجاز، على تعدد العادات وتنوّع الطقوس المحلية، صفة مميزة شاملة الا وهي عبادة الحجارة الالهية او المؤلهة. كان البدو يدعون هذه الحجارة «بيوت الله» ويعتبرونها مقاماً للالوهية او تماثيل لهــا، يتناقلون ذلك بالتقليد ويتوارثونه دون ان يهمّ احد منهم بنقد هذه الحقائق او بالنظر في مضمونها. ولما كانت الكعبــة في مكان موافق مستفيدةً من وجود بئر زمزم، التي لم تلبث ان اصبحت بئراً مقدسة، غدت نقطةً مركزية جذبت اليها جماعات من البدو فتحضروا والّفوا مدينة مكة.

عدم وجود الاوثان بالمعنى الحقيقي

على الرغم من خلوّ الجزيرة العربية من نظام مرتب للآلهة يُشبه ما نعرفه بالميتولوجيا اليونانية، فاننا نرى في بلاد العرب عدة آلهة ذكوراً وإناثاً نذكر منها المثلث الانثوي اي اللات والعزى ومَناة، ثم ما يدعونه «بنات الله». على ان علاقات هذه الالاهات بالآلهة لا تزال غامضــة. بل ان الالاهات انفسهنّ لا يظهرن بوضوح تام في مجموع آلهة الجنوب او بلاد اليمن. ويجدر بنا القول ان الحجاز خصوصاً لم يعرف الاوثان بالمعنى الحقيقي، اي التماثيــل المصنوعة او المنحوتة لتمثل الآلهة. وهو ما يشرح لنا سكوت القرآن عن الصور والرسوم الحقيقية؛ لان محمداً، لمّا لم يصادف في الجاهلية ما يثير الخواطر ويهدد التوحيد من تلك التصاوير والاوثان، لم يرَ حاجةً الى القيام عليها ومحاربــة اربابها وتحريمها في القرآن. وذلك ان آلهة العرب كانت بمجملها من الحجارة على اختلاف انواعها وهيئاتها من صخور تائهة، ونصب قائمــة، واعمدة مفردة او متعددة، توالت عليها العوامل الجوية فاكلت منها واثرت فيها تاركةً لها هيئات غريبة قد يشبه بعضها هيئة الآدمي شبهاً بعيداً. وكان من هذه الحجارة ما كان

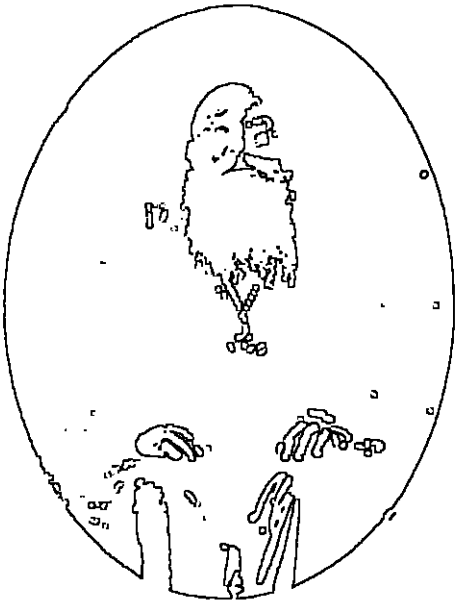

المثلث الرحمات البطريرك يوحنا الحاج

سيادة المطران يوحنا مراد
رئيس اساقفة بطلبك حالياً

سيادة المطران يوحنا الحاج
رئيس اساقفة دمشق حالياً

يظل ناشباً بالارض او عالقاً بالصخر ؛ ومنها ما يُنقل فيوضع ضمن إطار خاص « كالحجر الاسود » ؛ ومنها ما يُكتفى بان يُرفع حوله دائرة من الحجارة ليس غير وكان كثيراً ما يُحفر في جوار « الحجر » او النصب بئر يستقي منها الناس فيشربون ويغتسلون. وقد تكون شجرة قرب المكان فلا تلبث ان تُصبح بدورها مركزاً للالوهية او الهاً متجسماً ، يكرمها القوم فيعلقون عليها اسلاب الحرب ، او الاسلحة المقدَّمة ، او غير ذلك من النذور التي قد تكون خرقةً من قماش او قطعةً من ثوب.

وحول مركز الاله يمتدّ « الحرم » ، وهو مساحة من الارض مقدَّسة حتى لا يُمسّ من يلتجئ اليها سواء كان من الناس او الحيوانات ، بل من الشجر ايضاً فلا يجوز للناس ان يقطعوا غصناً واحداً من شجر الحرم . ولا يظنّ المطالع ان هذه المعابد البرية كانت آهلة بالسكان . لا فانها كانت تظلّ مقفرة اكثر ايام السنة حتى تأتي القبيلة — اذ كان لكل قبيلة او مجموع قبائل آلهة خاصة — فتجتمع فيها في ايام معلومة تُقضى بالاحتفالات ، منها الموسم المعقود في اوائل الخريف ، وموسم اوائل الربيع ، فيقدّم افرادها الضحايا واكثرها من الابل ، ويقومون بالطواف حول الحجر فيلثمونه او يكتفون بلمسه او استلامه في دوراتهم . وكان من واجب الحاضرين ان يقوموا ببعض التطهيرات والتحريمات الطقسية منها انهم كانوا يمتنعون عن الصيد واستعمال الاطياب. على ان الضحية المحرقة التي أوصي بها في التوراة كانت مجهولةً عند العرب. فكانوا يكتفون بصبّ دم الذبيحة — الذي كانوا يبدلون به الحليب بعض الاحيان — على النصب المعبود ، او في حفرة منقورة في اسفل النصب. ثم ينصرفون الى طعام طقسي كانوا يتناولون فيه لحم الذبيحة بعد ان يكونوا قد حلقوا رؤوسهم . حتى اذا تمت هذه الحفلة خرج المحتفلون من حالة الحرم فدخلوا حالة الحلّ فعادوا الى مشاغلهم واعمالهم وسائر مظاهر حياتهم العادية.

ومن تلك الانصاب او الحجارة المؤلهة ما كان يُحمل الى ساحة الحرب. وذلك اثناء المواقع المهمة الفاصلة بين القبائل وكذلك كانت تُحمل تلك الانصاب في بعض الاحتفالات الدينية كصلاة الاستسقاء مثلاً التي كانت تُقام زمن الجدب

والجفاف. وكانوا يضعون الحجر المؤله ضمن قُبّة من أدَم احمر تُخرج في موكب من النساء يُحطن بها ويوقّعن التراتيل الطقسية والهتاف الديني على انغام الصنوج. ثم تختتم تلك الاحتفالات بالطواف سبع مرّات حول النصب. ومثل هذه الطوافات كانت تُقام مدّة الحجّ فتفرد المحتفلين الى المواقف المختلفة او تصل بين الهياكل والمعابد المتجاورة. ومن عادات العرب الدينية التشوّف الى معرفة المستقبل بواسطة القِداح، اي السهام الخاصة بذلك، يخرجها «الكاهن» امام النصب، فتجيب عن السؤال المطروح بالنفي او الايجاب. وكثيرًا ما كانت تقوم «الكاهنة» مقام «الكاهن» المذكور.

الى هذه العبادات البسيطة العريقة في القِدَم كانت تمتّ عبادة القرشيين الظاهرة في الحجّ الى مكة بما فيه من مواقف في عرفة ومِنى وما اليهما، ومن دورات وطوافات في الصفا ومروة وغيرهما من الهياكل داخل مكة.

وقد احتفظ الحج الاسلامي باشهر مظاهر هذه الاحتفالات القديمة. على انه غيّر فيها بعض الشيء ليجرّدها من صفات الشرك، فالحقها بعبادة الله، وجعل مؤسسها ابراهيم باني الكعبة:

اما في ما خصّ الحياة الاخرى وخلود النفس البشرية فلم يكن للعرب معلومات واضحة عن ذلك، وهم على ما فُطروا عليه من الاستسلام المطلق للقضاء والقدر. لكنهم كانوا يعتقدون بوجود الجنّ؛ والجن، في عرفهم، مخلوقات غير واضحة التحديد، متوسطة بين الشيطان والانسان، تتزاوج وتتوالد كالناس؛ يخافها البشر لان بامكانها ان تختفي عن عيونهم، ولكنها خاضعة لشريعة الموت.

ومهما يكن من امر تلك المعبودات المتنوّعة، فاننا نرى، في القرن السادس، وهو القرن الذي ولد فيه محمد، ان «الله» اخذ بالبروز شيئاً فشيئاً والسموّ فوق جمهرة الالهة الخاصة ومجموع الانصاب المؤلهة. لقد ظل العرب يكرمونها جميعاً، ولكنهم بدأوا يعترفون مع اوس بن حجر «ان «الله» منهنّ اكبرُ»

خدمة طقوس العبادة

لم يكن للعرب نظام مقرّر تتدرّج فيه مراتب القائمين بطقوس العبادة على

نحو ما ندعوه اليوم بالاكليروس . بل كان خدمة الهياكل على فئـات متنوعة من كهنة ، وسدنة ، وعرافين ، وزاجرين ، وعـائفين ، وقـائفين ... كان الكهنة او الكاهنات يرجمون بالغيب ، ويسألون القداح ، ويقومون باحتفالات الاستسقاء ابتغاء المطر ، يلهمهم في كل ذلك احد الشياطين او الجنّ . امـا السدنة ، جمع سادن ، فكانوا حفظة الهياكل والمعابد . واما العائفون والقائفون فكانوا يشرحون مظاهر التفاؤل والتشاؤم ، ويفصلون الخـلاف في الانساب . وكان العائف يختصّ بشطار الزجر ، والقائف يستدلّ بشبه الاقدام وآثارها على النسابة والحاق الابن بابيه . وقد كان المحلّ الاعلى للكاهن فيسمو على هؤلاء جميعهم . بيد ان صفته لم تكن وراثية كصفة السادن . ومن خصائص الكهان ان يسيروا مع الجيوش الى الحرب ، فيرافقوا القبة المشتملة على الالـه ، وان يلجأوا الى الغيب فيطلعوا قومهم على نيـات العـدو وسير جيوشه . كما انهم يقومون بوظيفة الحكم او القاضي فيفصلون في الخلافات . وكان العرب يعتقدون في الكاهن ، وخصوصاً في الكاهنة ، قدرة سرية على استنزال المطر ، وزجر الارواح الشريرة ، وشفاء الامراض ، وردّ اللعنات ، والعمل بواسطـة اقوال غريبة سرية — كما نرى في حادث بلعام التوراة — على اضعاف العـدوّ فيكلّ سلاحه وتشلّ جميع حركاته .

بقي ان نقول كلمة في وأد البنات الذي كثيرًا مـا جرّ المستشرقون الى الاعتقاد بشموله بلاد العرب ، يستندون في ذلـك الى احتقار العرب لبناتهم وعدم الاكتراث لهنّ في اكثر مظاهر الحياة ، والى ما ورد في القرآن(١٦ : ٦١) من سؤال بسيط توسّع فيه الشعراء ، ولاسيما الفرزدق ذاك الفخور المدّعي ، في صدر الاسلام . اما الحقيقـة فهي ان ليس لدينا ما يؤيد وجود هذه العادة بين العرب ، ما خلا في قبيلة تميم التي قد تكون وأدت بعض بناتها ابان مجاعة شديدة .

اليهود

من المعروف ان اليهود احتلوا واحات الحجاز وقاموا بزراعتها واستثمارها . وقد كان اكبر جواليهم في المدينة حيث كانوا يقومون باهم المصالح والصنائع كالتجارة والصياغة وما شاكلها . ثم سمحوا لبعض العرب — وهم الذين دُعوا

في ما بعد « بالانصار » – بان يقيموا معهم بصفة « موالي » لهم . ولكن لما تكاثر عدد هؤلاء الموالي وشعروا بتفوقهم على اليهود ، اخذوا يعملون على الاستقلال بالسيادة . فاخذ البغض يتأصل بين الشعبين حتى ان محمداً ، بعد الهجرة ، قاسى من بغض اليهود ومقاومتهم له ما نرى صداه في القرآن . وكان في الطائف ايضاً جالية من اليهود . اما في مكة فلم يمثل اليهود الا بعض التجار الجوالين . واما في اليمن فكانوا كثيري العدد حتى توصلوا زمناً الى تأسيس دولة يهودية لم تخلُ حياتها من مواقع دموية بينها وبين نصارى الاقليم .

وكان لليهود حاخامون وهياكل ومدارس وسائر مظاهر النظام مع جميع الآراء والاحكام الخاصة بالدين الموسوي التلمودي ، التي كانت تدفعهم الى الترفع على العرب فيدعونهم « أميّين » نسبة الى الامة العربية ؛ لا الى الجهل بالقراءة والكتابة كما قد يفهمه البعض حتى في عصرنا ، او نسبة الى عدم وجود كتاب موحى بين ايديهم ؛ وينظرون اليهم من علُ ، على كون اكثر اليهود من اصل اسماعيلي اعتنق اليهودية في بلاد العرب . وقد تأثر اليهود بهذه العاطفة في مقاومتهم للاسلام ومجادلاتهم للمسلمين على ان ذلك لم يمنعهم ان يخوضوا انواع الشعر العربي وينبغوا فيه نبوغ غيرهم من العرب ، منصرفين الى الموضوعات المدنية الصرفة دون ان يخالفوا زملاءهم الوثنيين في اهمال ما يدلّ على كل اثر ديني ، حتى اننا لا نكاد نرى في شعرهم ما يشير الى يهوديتهم . وكان جميع اليهود من المتحضرين ، فلا نرى بين البدو قبيلة واحدة من اليهود ، بخلاف ما كان عليه مسيحيو العرب .

المسيحيون

كان المسيحيون اقل حظاً من اليهود في الحجاز من حيث الأقاليم التي نزلوها ، ومن حيث التعاون الجنسي . فلم تكن لهم تلك الواحات المخصبة التي احتلّها اليهود ولم يكن لهم ذاك النظام المتضامن . على ان النصرانية كانت واسعة الانتشار بين العرب المقيمين على حدود سورية ، ثم في دولة الغسّانيين ، وفي اليمن حيث كانت تقاوم بنجاح اليهودية . وكان يعضدها في منظر البدو نفوذ الدول المسيحية كدولة البزنطيين ، ودولة الحبش ، ودولة الغسّانيين

واللخميين . وهو عضد لم يعرفه الدين الموسوي . فكان في وادي القرى ، ثم على حدود سورية ، كثير من النساك والرهبان يعيشون افراداً وجماعات متمتعين باحترام البدو واجلالهم كما نرى ذلك في الشعر الجاهلي ، وفي القرآن الذي حفظ صدى تلك العاطفة اللطيفة (في السور ٥ : ٨٥ ؛ و٢٤ : ٣٥ ... ؛ و ٥٧ : ٢٧) .

ولا نرى في مكة الا قليلاً من المسيحيين الوطنيين اي من بني قريش على انه كان فيها عدد لا يُستهان به من نصارى الاحباش تجاراً وعبيداً .

اما اعمال المسيحيين فكانت تشبه اجمالاً اعمال اليهود منحصرة بالتجارة وما اليها ، خصوصاً بنقل البضائع بين المدن والواحات واحياء القبائل .

وقد كان جميع هؤلاء النصارى من تبعة البدع القديمة ينتسبون خصوصاً الى الشيع اليعقوبية والنسطورية والى نصرانية الحبش المتأثرة بالمبادئ اليهودية . ويظهر من القرآن (١٦ : ١٠٣ ؛ و٢٥ : ٨) ان محمداً في مكة كان يرغب في مجالستهم . على ان معاشرة هؤلاء النصارى المتكلمين لغةً غريبة (القرآن ١٦ : ١٠٥) والذين لا يعرفون دينهم حقّ المعرفة فيختلفون في الطقوس والعقائد (القرآن ١٩ : ٣٥ و ٣٨) لم تسهّل لمحمد اقرار فكره في ما خصّ عقائد النصرانية وقيمتها . فلم يتمكن اولاً من تمييزها عن اليهودية ، ومن تمييز هاتين الديانتين عن ديانة قديمة موحاة . وكذلك القول عن الوهم العالق بتلك الجماعة الصغيرة التي عاصرت النبي ودُعي دينها بالحنيفية ، وكانت موحدة لا من النصارى ولا من اليهود . فاعتقد محمد ، في اول الامر وقبل هجرته الى المدينة ، انه متفق مبدئياً واصحاب الديانتين الكتابيتين ، حتى انه كثيراً ما كان يطلب شهادتهم (القرآن ١٦ : ٤٥ ؛ و ٢١ : ٧ وما بعدها) فيرى في اتفاقه واياهم على العقائد التوحيدية برهاناً على صحة دعوته ، ودافعاً ليتابع عمله بين قومه في سبيل انتصار التوحيد . وقد تمنى بكل اخلاص (القرآن ٣٠ : ١) ان ينتصر البيزنطيون على الفرس المشركين . اما في المدينة ، بعد الهجرة ، فتحقق ، على اثر مناظراته مع اليهود ، البون الشاسع بين ما كان يدعو اليه وتينك الديانتين ، فاستنتج سوء النية عند اهل الكتاب جميعاً ؛ واتهمهم ، ولاسيما اليهود ، بأنهم اخفوا عنه كتبهم المقدسة اولاً ، ثم بأنهم حرّفوها فأفسدوا معناها .